



دراسات في الفن

نحو دنيا الروح للأستاذ عزيز أحمد فهمي

وغير المراهقين من كل من نسوقه إليهم الحياة ليربوه . فليس أشرف من هذه المؤامرة شيء ، وسيجي قريباً أو بعيداً ذلك اليوم الذي توفى فيه أساليب العلم إلى كشف ما بين الفرزة الجنسية والفنون الجميلة من صلة حقيقية مؤكدة . ولست أريد بهذا الادعاء بأن العلم غائب عن هذه الصلة ، ولكنني أريد أن أقول : إنه لا يزال يحوم حولها ، ولما يجرؤ على غزوها لأنها ميدان جديد عليه ، ولأنه لما يستنبط الميزان والقياس ، والأنبوبة والمخبر ، والأملاح والأحماض التي يستطيع أن يحول بها الفرزة الجنسية إلى الفرزة الفنية ، والفرزة الفنية إلى الفرزة الجنسية ليصدق بعد هذا عقله الثقيل المتشكك أن هناك وحدة تجمع بين الاثنين .

وإلى أن يصل العلم إلى استنباط هذه الأدوات التي لا يفهم شيئاً إلا بها يستطيع المتحررون من أغلاله وقيوده أن يضربوا في السماء بحثاً عن هذه الصلة ، وأن يتركوه في معمله يتخبط بين الشك والخور لعله مهتد يوماً إلى تركيب « حقنة » من الشعر ، أو « برشامة » من النعم ! فليبق العلم في معمله ، وليدع العلماء المراهقين إلى الفنون الجميلة ، وليعلموا دعوتهم هذه بأن الفنون الجميلة تيمت في النفس الخيال ، وتلمب فيها العاطفة ، أو فليقولوا على المكس من هذا إن الخيال والعاطفة هما اللذان يعضان في النفس الفنون الجميلة ، أو فليقولوا ما شاءوا من أمثال هذا القول المخلخل الذي لم يصفطه الإيمان ولم تناسك به الثقة .

لندع العلماء إذن يترددون ما طاب لهم التردد ، ويتوجسون ما حلا لهم التوجس ، ولنخص نحن مع أولئك المتحررين من الأغلال والقيود ، ولنرهم كيف يدركون الصلة بين الفرزة الجنسية والفنون الجميلة .

وقد عودنا هؤلاء المتحررون المتطايرون أن يلتوا على عقولنا قبل أن يهدونا إلى ما يعلمون من الحق ، كأنما يابون إلا أن يماثوا العقل وأن يذلوه قبل أن يقودوه إلى الور وبلمهوه . ولكنهم

يقول علماء التربية وعلماء النفس فيما يقولون من الحق : إنه يمكن التخفيف من حدة الفرزة الجنسية عند المراهقين بصرفهم إلى الفنون الجميلة . وهم لهذا يوصون للربين بأن يعلموا المراهقين الموسيقى والنمط والرسم والآداب . وقد استجاب لهم الربون فأنشأوا في المدارس الثانوية وبخاصة جميعات الفنون الجميلة إلى جانب فرق الألعاب الرياضية التي سبق أن أثبت دعاها أن من يمارسها من المراهقين يبدل فيها من نشاطه البدني ما يحتاج بعده إلى الراحة بعيداً عن التفكير في الاستجابة لهاتف الفرزة الجنسية .

فهل أثبت دعاة الفنون الجميلة من علماء التربية وعلماء النفس دليلاً على أن من يمارسها من المراهقين يبدل فيها شيئاً من نشاطه يحتاج بعده إلى الراحة بعيداً عن التفكير في الاستجابة لهاتف الفرزة الجنسية لتعلمن بهذا الدليل عقولنا . ولتؤمن بأن الذي يدعون إليه قائم على أساس من الحق يرتكز على صلة مؤكدة بين الفنون الجميلة والفرزة الجنسية ، أو أنهم رأوا الفنانين أكثر الناس انصرافاً نزعات البدن فخطر لهم أن يتصيدوا المراهقين بالفنون يشغلونهم بها عما تتلف إليه أبدانهم الحارة اللتهبة . فهي إذن مؤامرة من الخداع والتضليل اتفق عليها علماء التربية وعلماء النفس ، وجازت على من وقع في أيديهم من المراهقين أو جازت - في القليل - على بعضهم ؟

ولكنني إذ أقول هذا أرجو علماء التربية وعلماء النفس أن يعضوا في مؤامرتهم هذه إلى أبعد حد ، وأن يأخذوا بها المراهقين

على أى حال أحب إلى النفس وأرحم من الأنايب والأملح ...
فلنحتمل مما بهتهم إذن ولنسألهم :

— كيف يجدون الصلة بين الفريضة الجنسية والفنون الجميلة ؟

ولكنهم يسألوننا : وكيف يجدون الصلة بين الشحم والنبوة ؟

— وهل هذا سؤال بالله عليكم ؟ إننا لا نجد شيئاً .

— إن هناك أشياء . فلو أنكم عدتم إلى سير الأنبياء

لوجدتمهم يكثر من الصوم ، ويخففون من الطعام . ولو أنكم

عدتم إلى سيرة النبي الأكل محمد (أبغوه يصوم كلما اعتزم أمراً

جللاً ، وكلام بنزوة أو حرب . وإذا اعتبرتم « غندي » الهندوكي

التقى الخارق المعبود ولياً من أولياء الله كما نعتبره نحن فإنكم لا بد

من أن يجرسه على الصوم كلما احتاج إلى التجلج والتعزز في قيادة

أنصاره ومقاومة خصومه . أفلا ترون في هذا صلة بين الشحم

والنبوة ؟ أو بين الشحم والسمو الروحي على الأقل ؟

— الآن رأينا ، وهي كما تبدو على هذا النحو صلة عكسية

— نعم . إنها صلة عكسية . فكلما غذى الإنسان بدنه شغله

هذا عن غذاء روحه ، وكلما جوع بدنه سهلت عليه تقضية روحه

— إنكم إذا تعدونه شهيداً ذلك الذي ينتحر جوعاً

— لا شهادة في إنلاف ، وإنما الشهادة في التقويم . فإذا

استلزم التقويم الموت فإنه إذا تخرب ما بين المتساكنين : البدن

والروح . عودوا إلى ما كنا فيه ، وحدثونا عما يصحب انفجار

الفريضة الجنسية عند المراهقين من شدة ميلهم إلى الإكثار من

الطعام والإكثار من وجباته

— إنها أجسام يزيد نزوعها إلى النمو فهي تحتاج إلى ما يمين

على بنائها وما يسعف نموها

— لا . فإن أجسام المراهقين لتنمو وتفرغ ولو لم تسترد

من قوتها ، فهذا التوسيل من الحياة يتدفق من غد ذلك نجمة

ومخزنها ما عاشت وواصلت العمل

— إذن لماذا تقولون ؟

— الحياة ماضية في سبيلها . وسبيلها هو الأحياء أنفسهم ،

فهي تسلكهم ، وقد تنقلت فيهم من ماضيهم حتى انتهت إلى

حاضرهم ، وهي منتقلة فيهم من حاضرهم إلى مستقبلهم . وهي في سيرها

هذا تعطى أولئك الأحياء ثمن ما سمحوا لها بالمرور فيهم وتأخذ منهم

نحن ما عمرتهم . ويقول ناس مؤمنون بالمبدل : إن ما تأخذه

الحياة من مثقال ذرة لا تأخذه إلا بعد أن تكون أعطته مثقال ذرة

— هذا حسن . ولكن ما قصة الأخذ والمطاء عند المراهقين ؟

— عند المراهقة تبدأ الحياة في الاشتداد بمطالبة المراهق

بما أعطته . وهي إذ تطالبه تستمر تعطيه . وهو إذ يستمر نفسه

في هذا الموقف الجديد يقبل على الحياة إقبالاً جديداً فيه عنف

وفيه جشع . فهو يستطعم الحياة مادتها ومعناها بنهم المائل

المكف بالتفقة يتكالب على موطن رزق . وفي سن المراهقة

تصارح النفس الحياة بحقيقتها وتكشف لها القناع عن وجهها .

وكل نفس تستجمع خصائصها ومقوماتها مما سبق أن أعطته

الحياة إياها من طريق الوراثة ، ومن طريق البيئة ، ومن طريق

التربية ومن سائر تلك الطرق التي تنفذ منها الحياة إلى الأحياء .

عندئذ ترى الحياة مرافقاً مقوس الأنف يعد لها كفيه ويقول :

هات ؛ ومرافقاً آخر مسحور المينين يعد لها شفتيه ويقول :

هات ؛ ومرافقاً آخرين ما بين هذا وذاك يريدون مما يطلبه هذا

ومما يطلبه ذاك . والحياة أمام هؤلاء جميعاً تعطى وتأخذ مثلما

تعطى ، مثقال ذرة بمثقال ذرة . وهي كما تكن في هؤلاء الأحياء ،

تلبذ في غيرهم من الأحياء المتجسدة ، والأحياء التجردة ، وهي

تمرض نفسها في مظاهرها المختلفة أمام النفوس فلكل نفس

منها ما تحب وما تشاء . فن أخذ منها مادة لم يستطع أن يعطيها

إلا مادة ، ومن أخذ منها معنى أعطاهها المعنى ، ومن أخذ منها

مما أعطاهها منها مكا . والمراهق قد تكون مما أخذه من الحياة

وهو ليس مادة فقط لأن الناس ليسوا مادة فقط فهم مادة وشم

آخر تقول عنه نحن إنه روح ويقول عنه ناس آخرون إنه نفس ،

ونحن وهم تقول إنه شيء متجرد عن المادة التي تزيها الكهرياء

في أزياء مختلفة . فلا بد إذن أن يأخذ المراهق « كغيره » من مادة

الحياة رحمتها ليعطيها مادة ومعنى ، وأيهما أكثر الأخذ أكثر

المطاء . ومن الناس من يقتنون في هذه السوق بالضرورة اللازم

لإقامة إحدى حاجتهم ويلحون في طلب مكملات الناحية الأخرى ؛

ومنهم من يتوسطون فيطلبون من هذه مقدار ما يطلبون من تلك ،

وهذه الأرض تستطيع أن تمد الناس بحاجتهم من المادة وزيادة ؛

وسماء الماني تستطيع أن تهب الناس حاجتهم من الماني وزيادة ؛

والناس في التنازع على المادة يتخاصمون ويتعادون ، بينما هم حين

يتناهبون الماني يزدادون تنازلاً وتفاهاً وتجباً وتماطفاً وتوحداً .

فكلما احتضمت البشرية بالناحية المادية أمعت في التبعثر والتفوق

والثقت ، وكلما توغلت في الناحية الروحية أمعت في التماسك

ما يعيشون به ، والطبيعة لا تريد منهم أكثر من أن تعيش أبدانهم . فإذا أخذوا منها أكثر ما يلزم لها خالفوا قانونها وظلموها وظلموا أنفسهم ، وسينتج الناس بقدر ما يحفظون نوعهم وبقدر ما يسمح للحياة المادية أن تسلك أبدانهم إلى مرحلتها الجديدة . ولست الحياة تريد أكثر من هذا . والحياة بعد ذلك تطلب الإيجاب الروحي ، يؤديه الإحساس . الحياة تطلب الفن طلباً طبيعياً واجب الأداء ؛ فإن هو في هذه الحضارة !

— إن الحياة هي التي حبست عرائسها الروحية عن البشر في هذا العصر !

— بل هن معروضات أمام الأرواح النابهة ، ولكن ما أقل هذه الأرواح النابهة الآن ؟ لقد استغنى الناس على أنفسهم ، ختمهم العلم والعقل بخاتم أسفر من الذهب .

— ولكن ما هو ذا العلم يدعو المراهقين إلى الفنون الجميلة ليصرفهم عن شهوات أبدانهم .

— أولاً يملك العلم إلا هذه الدعوة ؟ إن الفنون الجميلة لها الذين يحبونها لا ينصرفون عنها . أما الذين يزدرونها فلا يقبلون عليها إقبالهم على نوع من البث .

— فما الذي تطلبونه من العلم إذن ؟ إنه لا يستطيع غير هذا . — تريد أن يرف المراهقين وغيرهم إلى المرائس من الماني والفكر ، فإذا عشقوها عطروا لها أرواحهم ؛ فإذا ساكنوها أعقبوا فيها فنوناً تسلكها الحياة الماضية إلى الأمام في سبيلها .

— وكيف يحدث هذا ؟

— إن هذه المرائس تياهة مدللة لاثنتين إلا أمام حس يرهف نفسه لها ، فهل يستطيع العلم أن يرهف إحساس الناس ؟ — لا . ولذلك يعمد في هذا إلى الفن مستعيناً به .

— ولكن استمرار الفن لا يخلق فناً ، وإنما يخلق الفن الإحساس بالحياة نفسها ، وما دمتنا نزرع إلى تحويل إنتاج البشرية بقدر ما نستطيع من الإنتاج البدني إلى الإنتاج الروحي فلا بد أن نمي يخلق الفنون وإنتاجها لا دراستها واستمرارها ، وهذه العناية هي التي تنتهي مع الدأب إلى دنيا الروح

— وهل يمكن أن تقيم دنيا من الروح ؟

— نعم كما قامت دنيا من كهرباء موجبة وسالبة !

عزيز أحمد نسيمي

والانسجام . ونحن إذا رجعنا إلى تواريخ الأفكار والدعوات الروحية رأينا أخلصها روحاً أكثرها تماوياً بين أنصارها ، ولم يزل الاختلاف يدب إلى هؤلاء الأنصار إلا حيناً تنزلق إلى فكرتهم دواع مادية فتزورها . فالواجب إذن على البشرية إذا كانت تريد أن تستخدم عقلها في الخير أن تتنع من المادة بما يقوم الحياة البدنية فقط لا أكثر ولا أقل ، وأن تنقذ بالوافر الباقي من نشاطها إلى حيث يمكنها أن تتوحد . وهذا هو مادعا الأنبياء إليه ، وحاشا أن يكونوا مجانين ، وإنما هم أنبياء وقد أرشدوا البشرية إلى طريق الخير ومضوا ، فاتبعهم أولياء أقنعت الدعوة إحساسهم وعقلهم ، وانساق في طريقهم فتانون يتمشقون في هذا الكون جماله ، ويطلبون كاله وكال أنفسهم معه .

— ولكن البشرية إذا اتبعتم في هذا عادت كما كان يعيش أهل الكهوف ، أو كما يعيش أهل الغابات

— وهل تحسبون الحال اختلفت ؟ الكهوف باقية ولكنها اليوم عمارات من ناطحات السحاب . وفي الغابات يصيد الناس الحيوان نياً ككواه ، وفي هذه المهارات يصيد الناس بعضهم بعضاً ويأكل بعضهم بعضاً ، وقد عافت البشرية أن تأكل لحماً فأكلت في المهارات ضميرها وشرفها وروحها . إن أهل الكهوف كانوا أقرب منا إلى السماء ، وإن أهل الغابات لا يزالون أقرب من أهل المهارات إليها

— ولكن هذا العلم الذي علمناه ، وهذا العقل الذي نمنا فينا ... أنلقيهما في الفضاء لنعود إلى حياة المراء ؟

— لم يقل أحد هذا . وإنما نستطيع أن نجد علومنا وعقولنا لتنغم أرواحنا لا للترفيه عن أجسادنا ، وسنرى عندئذ أن أكثر ما نعلمه لنو لا يقنئ الروح ، وسنرى عقولنا قد اسودت من كثرة ما كذبت علينا وأضلقتنا طريقنا — وعندئذ ماذا نصنع ؟

— ... أن يلتفت إحساسنا . عندئذ يبدو لنا الكون في آلاف الصور وكلها عجيبة . وقد يميننا صوم الأنبياء على تذوق الحب واستساغته ، وقد يصرفنا هذا العشق الشفاف عن تهافت الأبدان وتجاذبها ...

— وبعد ذلك تنتهك قوى البشرية فتتخاذل وتهزل ويقبل تسلسها وتموت

— من أين جثم بهذا ؟ سيأكل الناس من الأرض